CC BY NC

ISSN 2831-5049
Vol. 2, No. 1, 2023, p.135-158
journal.maqasid.org
DOI: 10.52100/jcms.v2i1.99
Received : August 14th 2022
Revised : October 1st 2022
Accepted : October 29th 2022

دور السياق في تفسير القرآن الكريم وترجمته

M.A.S. Abdel Haleem
SOAS, University of London, England
Translated by Mawloud Mohadi
mmohadi@maqasid.org

Abstract

Quoting out of context can become especially serious when dealing with religious texts. As will be demonstrated in this article, attention to context (*siyāq*) is essential to proper understanding and translation of the Qur'an. However, in much tafsīr writing, and in most of the translations of the Qur'an into English, as well as more general discussion of the Qur'an, we come across examples where insufficient regard to the context seriously mars understanding and results in misrepresentation of the Qur'an's message. The study of context has a central place in rhetoric (*balāgha*) and in Qur'anic studies in Arabic, but is hardly mentioned in Qur'anic studies undertaken in English. This article explores the significance of context in reading the Qur'an. In the introduction, I outline the various types of context, and then move on to examine its role in determining the meaning of words and sentences, and in determining the inclusion and omission of material, as well as the order and amount of material used in any given situation in the Qur'an. The discussion will also explore which linguistic features can cause difficulties in determining meaning, and what clues are given in the Qur'an to help identify the context and appropriate meanings of specific passages. Examples will be given from translations of the Qur'an, tafsīr, and Qur'anic studies.

Keywords : Qur'an; tafsir; translation; context; wujuh.

الملخص

يمكن للاقتباس خارج السياق أن يصبح أمرًا جديا، وخاصة عند التعامل مع النصوص الدينية. توضح هذه الورقة أهمية اعتبار السياق وضرورته لفهم القرآن الكريم وترجمته على الوجه الصحيح. ومع ذلك، فإننا صادفنا أمثلة كثيرة لا يعطى فيها للسياق الأهمية الكافية، وذلك في كثير من كتابات التفسير وكذا معظم ترجمات القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، بالإضافة إلى المناقشات العامة حوله، مما ينتج عنه تحريف وفهم غير صحيح لمعاني القرآن، علما أن دراسة السياق تحتل مكانة مركزية في علم البلاغة وفي الدراسات القرآنية باللغة العربية، بالرغم من ذلك يندر ذكرها في الدراسات القرآنية التي أجريت باللغة

Corresponding Author
Name : Mawloud Mohadi
Email : mmohadi@maqasid.org

الإنجليزية. تستكشف هذه المقالة أهمية السياق في قراءة القرآن الكريم وفهمه، وتتضمن مقدمة تطرح بإيجاز الأنواع المختلفة للسياق، ثم تنتقل إلى دراسة دور السياق في تقرير معنى الكلمات والعبارات، وتحديد إمكانية إدراج أو حذف معارف أو معطيات، وكذلك ترتيب وحجم تلك المعطيات المستخدمة في حالة معينة في القرآن الكريم. تحاول الورقة كذلك استكشاف السمات اللغوية التي يمكنها أن تسبب معضلات في تحديد المعنى، والقرائن المذكورة في القرآن الكريم التي تساعد في تحديد السياق والمعاني المناسبة لعبارات معينة. وستشير الورقة إلى أمثلة مختلفة من ترجمات القرآن الكريم والتفسير والدراسات القرآنية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم؛ التفسير؛ الترجمة؛ السياق؛ الوجوه.

المقدمة

يتناول هذا المقال مفهوم السياق ودوره في الدراسات القرآنية، خاصة المتعلقة بفهمه وتفسيره وترجمته إلى لغة أخرى. كما يجادل هذا المقال بأنه لم يتم إيلاء الاعتبار الكافي للسياق في معظم ترجمات القرآن إلى الإنجليزية، وفي شروحه باللغتين الإنجليزية والعربية وغيرهما من اللغات الأخرى، وذلك على حساب الفهم الملائم للقرآن. لذلك دعونا أولاً نحدد ما هو المقصود بمصطلح السياق.

من خلال مناقشتنا في هذه الورقة، يُستخدم مصطلح "السياق" للدلالة على أمرين:

أ_ سياق النص أو الخطاب: ويعني أجزاء من عبارة أو قول تسبق أو تتبع كلمة أو عبارة معينة وتؤثر على معناها، وهو ما يشار إليه في اللغة العربية باسم السياق أو السياق النصي.

ب_ سياق المقام: وهو مجموعة الظروف والحيثيات أو الحقائق التي تحيط بأي قول في القرآن الكريم. ويُعرف هذا في علم البلاغة العربية بالمقام، وفي ضوء المناقشات المستجدة يشار إليه أيضًا بسياق الموقف.

لذلك سيُنظر إلى كلا الفئتين على أنهما يؤثران على المعنى، غير أن المقام/سياق الموقف تم اختياره تاريخيًا للمباحثة في الدراسات البلاغية، مما يتطلب بعض التفصيل.

لطالما كانت البلاغة من أهم التخصصات في تاريخ التفسير القرآني، وقد نشأت وتطورت حول سؤال مركزي يتمحور حول تقدير قيمة أسلوب القرآن الكريم، وخاصة إعجازه. يشهد على ذلك العديد

Copyright © 2023 JCMS

من الدراسات مثل كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت. ٤٧١هـ /١٠٧٨). إن أهمية البلاغة، وخاصة علم المعاني وعلم البيان في التفسير معترف به بشكل جلي في اللغة العربية، لذلك أولى المفسرون مثل الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ/١١٤٣) والرازي (ت. ٦٠٦هـ/١٢٠٩) اهتماما كبيرا بالبلاغة مما يجعل عملها ذا قيمة علمية مميزة. ومن أهم إسهامات علماء البلاغة المتقدمين اعترافهم بمفهوم المقام ودوره في تحديد معنى الكلام وتوفير معايير للحكم عليه. فعلم المعاني الذي يعتبر أول الفروع الثلاثة التي تشكل نظام البلاغة، يُعرف بأنه العلم الذي يناقش مطابقة الكلام لمقتضى الحال. فكما يوضح الخطيب القزويني (ت. ٧٤٩هـ/ ١٣٣٨):

"ومقامات الكلام عندهم متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يبايم مقام التأخير، ومقام الذكر يبايم مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي. وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام. وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له." (القزويني، ١٩٧٠، الصفحة ٤٢-٤٣)

أشار تمام حسان (١٩١٨ - ٢٠١١) إلى أنه عندما قال علماء البلاغة "لكل مقام مقال" و"لكل كَلِمَة مع صاحبتها مقام" وضعوا مبدأين بلاغيين رائعين يمكن تطبيقهما بشكل متساوٍ على دراسة اللغات الأخرى (تمام، ١٩٧٤، الصفحة ٣٣٧، ٣٧٢)، وبفعلهم ذلك، كانوا متقدمين على زمانهم بألف سنة، حيث تم مؤخرا اعتبار المقام والمقال أساسين منفصلين لتحليل المعنى في التفكير اللغوي الغربي الحديث. عندما صاغ مالينوفسكي المصطلح الشهير "سياق المقال" عام ١٩٢٣، لم يكن على دراية بأن علماء البلاغة العرب استخدموا مصطلحًا مشابهًا قبله بألف عام.

جاء هذا الاكتشاف العظيم من جانب علماء البلاغة نتيجة تحقيقاتهم في الأسلوب والإعجاز القرآني. لذلك نرى حتى النقاد الأدبيين مثل ابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٩) (ابن الأثير، ١٩٣٩، الصفحة ٤ الجزء ٢) اعتمدوا بشكل كبير على الاستشهادات القرآنية لإثبات التميز الأسلوبي في استخدام اللغة. فقد جعلت لغة القرآن وأسلوبه النظر في السياق أمرًا ضروريًا، حيث يستخدم القرآن أسلوبًا موجزًا للغاية في التعبير بدون تفسير مفصل. على سبيل المثال، يعتبر الحذف سمة مميزة جدًا ومتكررة في القرآن، لأن القرآن يتحدث إلى مجتمع كان على دراية بالأحداث أو الأفكار التي يشير إليها بشكل عابر

Copyright © 2023 JCMS

ودون إعطاء تفسير مطول. وهذا يعني أنه في بعض الأحيان تكون العبارة أو الجملة أو الآية مكثفة وجامعة للغاية بحيث لا تسمح بتحديد السياق بسهولة.

ومن السمات الحاسمة الأخرى التي تعتمد على تحديد السياق الاشتراك في الكلمات المفردة، وبدرجة أقل في البنية. يُعرف الاشتراك القرآني بمصطلح معروف يشار إليه بوجوه القرآن؛ أي تعدد معاني الكلمات في القرآن، وهو الاسم المطبق على نهج تحليلي نشأ وتطور في أوائل القرن الأول الهجري، مما أدى إلى إنتاج عشرات النصوص على مدى خمسة أو ستة قرون.[1] فعلى سبيل المثال، وردت كلمة "كتاب" في القرآن الكريم وهي تحمل عشرة معانٍ مختلفة. فبالنظر إلى ميزة الاشتراك أو تعدد المعاني، فإن العامل التوجيهي الوحيد في تحديد المعنى هو السياق. كما سنرى في مناقشتنا، فقد اعتمد المفسرون على القواميس لأجل ذكر كل البدائل الممكنة لمعاني الكلمات في مناقشاتهم لمعناها في آية معينة، فعلى سبيل المثال يقولون: "تعني إما هذا أو ذاك، أو ذاك أو ..." بدلاً من اختيار المعنى الذي يناسب السياق وإلغاء باقي البدائل، كما سنشرح أدناه.

سأناقش الآن بعض الأمثلة حول مصطلح الوجوه وترجماتها، بدءًا بكلمة "الحكيم"، والتي تمثل نموذجا رائعا لظاهرة الوجوه التي تكررت ٩٧ مرة في القرآن. من الناحية المورفولوجية، فهي صيغة تكثير من صفة مشبهة، وهذا في حد ذاته لا يمثل مشكلة، لكن المشكلة تكمن في الاصطلاحي، إذ يشتق لفظ حكيم من الأصل ح-ك-م- غير أنه يفترض أنها مشتقة كذلك من "الحكمة"، أو من حُكم والتي تعني "القرار" / "القضاء". إلا أنه من الملاحظ أن جميع المترجمين الإنجليز للقرآن الكريم الذين استشرتهم اختاروا دائمًا المعنى الأول في جميع الأمثلة الـ ٩٧، مما دفعهم إلى الإقرار بأن هذا المصطلح معناه الأقرب من الحكمة. قد يكون هذا قد استند إلى المعنى الأول الذي نجده يحدث في مفردات القاموس، (فير، ١٩٦١؛ لاين، ١٨٦٣)، أو ربما يكون المترجمون قد تأثروا بتفسير البيضاوي الذي كان التفسير المتاح تاريخياً لعلماء الدراسات القرآنية الأوروبيين والأمريكيين منذ تحريره ونشره في أوروبا في وقت مبكر نسبيًا

[1] تحدث ابن عباس (ت ٦٨٧/٦٨) وعلي بن أبي طالب (ت ٦٦١/٤١) على هذه الميزة في الأسلوب القرآني. مع تطور الدراسات القرآنية، أجريت دراسات منفصلة عنها، تحمل أسماء مختلفة مثل الأشباه والنظائر (بقلم مقاتل بن سليمان، ت ٧٦٧/١٥٠)، التصاريف (تأليف يحيى بن سلام)،، ت ٨١٥/٢٠٠٨)، ما اتفق لفظه واختلف معناه (بقلم المبرّد، ت ٨٩٨/٢٨٥)، الوجوه والنظائر في القرآن (للدمغاني، ت ٤٧٨ / ١٠٨٥). كتاب مقاتل الذي اشتهر باسم "الوجوه والنظائر في القرآن" خير مثال على ذلك، أين ناقش فيه ١٨٥ حالة من هذه الوجوه. يمكن تصنيفها تحت اثني عشر عنوانًا، تبدأ بكلمة واحدة تحمل سبعة عشر وجيه وتنتهي بـ ٤٢ كلمة تحمل كل كلمة وجهين. يشير كتاب المقتيل وما تلاه من تجميع إلى مدى انتشار هذه السمة في القرآن، والتي، كما سيتضح، تجعلها قضية مهمة في ترجمة القرآن.

Copyright © 2023 JCMS

(وات وبل، ١٩٧٠، الصفحة ١٦٩). ويشير البيضاوي عند أول ظهور لمصطلح الحكيم في سورة البقرة، الآية ٣٢، إلى حكمة الله تعالى. ومع ذلك، فإن البيضاوي، كما سيظهر لاحقًا، معروف في كثير من مقاربته بتركيزه على الكلمة الموجودة بمعزل عن سياقها. لذلك يبدو أن المترجمين، بدءًا من جورج صال، قد نسخوا معنى "الحكيم" ممن أسلفهم دون التساؤل عما إذا كانت ترجمتها هذه تتناسب مع السياق أم لا. سنناقش هنا مثالاً واحدًا، قال تعالى ﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا ادْخُلُوْا فِى السِّلْمِ كَاۤفَّةً ۖوَّلَا تَتَّبِعُوْا خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ ۗاِنَّهٗ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ. فَاِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا جَاۤءَتْكُمُ الْبَيِّنٰتُ فَاعْلَمُوْٓا اَنَّ اللّٰهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾ (البقرة، ٢٠٨- ٢٠٩)، حيث قام جميع المترجمين بترجمة كلمة الحكيم ضمن معنى الحكمة.

إن السياق الذي ذُكرت فيه لفظة الحكيم هنا يتضمن حُكما ويحمل وعيدا بأن الله عز وجل قادر على معاقبة المرتدين من المؤمنين. وَرُوِيَ أَنَّ قَارِئًا قَرَأَ، غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَسَمِعَهُ أَعْرَابِيٌّ فَأَنْكَرَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَقَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ فَلَا يَقُولُ كَذَا الْحَكِيمُ، لَا يَذْكُرُ الْغُفْرَانَ عِنْدَ الزَّلَلِ، لِأَنَّهُ إِغْرَاءٌ عَلَيْهِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْبٍ نَحْوُ هَذَا، وَأَنَّ الَّذِي كَانَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ أَقْرَأَهُ: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَأَنْكَرَهُ حَتَّى سَمِعَ: عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَقَالَ: هَكَذَا يَنْبَغِي!"[٢] (أبو حيان، ١٢٣/٢) وعليه، فإنه من الواضح من سياق الآية أن تترجم كلمة حكيم في هذه المناسبة للتعبير عن معنى ضمني مفاده "من يحكم" بدلاً من "من له الحكمة". وبالنظر إلى أن الحكيم صفة من صفات الله تعالى، فمن الواضح أنه ينبغي الحرص على تحديد المعنى الصحيح باللغة العربية قبل الترجمة.

كما تشير كلمة الرحمن إلى صفة إلهية أخرى تمت ترجمتها بشكل خاطئ لأن مترجميها لم يولوا الاعتبار الضروري للسياق الذي تحدث فيه، فلقد قام العديد من المترجمين بترجمة هذه الصفة إلى 'the Merciful' أو إلى the All Mercifull غير أنه من الواضح أن هذه لا تتناسب مع العديد من المناسبات. على سبيل المثال، في الآية ٤٢ من سورة الأنبياء "قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ"، حيث يتم ترجمتها بشكل مختلف على النحو التالي:

ترجمة الخالدي Who shall keep you safe from the All-Merciful by night or day?

[٢] وأصل الرواية ما حكي عن كعب الأحبار أنه لما أسلم كان يتعلم القرآن، فأقرأه الذي كان يعلمه " فاعلموا أن الله غفور رحيم " فقال كعب: إني لأستنكر أن يكون هكذا، ومر بهما رجل فقال كعب: كيف تقرأ هذه الآية؟ فقال الرجل: فاعلموا أن الله عزيز حكيم. فقال كعب: هكذا ينبغي؛ " عزيز " لا يمتنع عليه ما يريده، " حكيم " فيما يفعله. تفسير القرطبي، سورة البقرة، الآية ٢٠٩.

Copyright © 2023 JCMS

ترجمة جونز Who will guard you night and day from the Merciful?

ترجمة آربري Who shall guard you by night and in the daytime from the All-merciful

هذه الترجمات تحوي إشكالات واضحة: "فحفظ أحد من الرحمن"، كما في ترجمة الخالدي على وجه الخصوص، يبدو متناقضًا إلى حد ما. لكن في ترجمتي الخاصة لهذه الآية، اخترت بدلاً من ذلك:

'Who could protect you night and day from the Lord of Mercy?'

على أساس أن الجانب الرباني والعظيم لله عز وجل هو المراد به في هذا السياق. فهذه الترجمة تحتفظ بفكرة رحمة الله تعالى، ولكنها تنقل أيضًا معنى الربانية التي تحوز على السلطة والعظمة. وهناك مثال آخر لترجمة غير مناسبة للسياق في ترجمة جونز للآية ٤٥ من سورة مريم [يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا] حيث يقول إبراهيم عليه السلام لأبيه:

"My father, I fear that some punishment from the Merciful will touch you."

فترجمة الآية بأن يأتي العقاب من الرحمن لا تتناسب تمامًا مع هذا السياق الذي يستوجب مرة أخرى ترجمة مفادها "إله الرحمة". هذه القراءة لصفة الرحمان ودلالتها يؤيدها أيضًا تمام حسّان في مقال درس فيه تكرارات مصطلح الرحمن في القرآن الكريم وخلص إلى أنها تنطوي على معاني السلطة والسيادة (تمام، ٢٠٠٤).

مصطلح "ولد" هو مثال آخر لكلمة يمكن أن يكون لها آثار مهمة على كيفية قراءة آية معينة، اعتمادًا على كيفية ترجمتها. قال الله تعالى في سورة مريم ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (مريم، ٨٨-٩٠). ففي ترجمة آربوري للآية ٨٨ و ٩٠ من سورة مريم أشار إلى ان كلمة "ولد" "son" تعني "ابن":

> They say, "The All-Merciful has taken unto Himself a son. You have indeed advanced something hideous! The heavens are wellnigh rent of it and the earth split asunder and the mountains wellnigh fall down crashing for that they have attributed to the All-merciful a son: and it behoves not the All-merciful to take a son."

ولم يكن آربري الوحيد في هذا الامر، بل حذا حذوه آلان جونز و كذلك الخالدي وآخرون ممن ترجموا كلمة"son" أو "ولد" إلى "ابن"، وهذا في الواقع يعتبر استخداما معاصرا في اللغة العربية. في حين تشير كلمة "ولد" في اللغة العربية الفصحى إلى "النسل"، سواء كان مفردا، أو جمعا، مذكرا،

Copyright © 2023 JCMS

أو مؤنثا (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢). إلا أنه يمكن القول إن هؤلاء المترجمين تأثروا فكريا بما جاء في الجزء الأول من سورة مريم والذي ذُكر فيه المسيح عليه السلام، وخاصة في الآية ٣٥، حين قال الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلّٰهِ اَنْ يَّتَّخِذَ مِنْ وَّلَدٍ سُبْحٰنَهٗ ۗاِذَا قَضٰٓى اَمْرًا فَاِنَّمَا يَقُوْلُ لَهٗ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ (سورة مريم، ٣٥)، بالرغم من أن قصة عيسى عليه السلام أتت فقط في الجزء الأول من السورة. بعد ذلك، وخاصة من الآية ٧٧ وما يليها، يتحول موضوع الخطاب في السورة ليشير إلى المشركين في مكة. قال الله تعالى ﴿وَاتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اٰلِهَةً لِّيَكُوْنُوْا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا ۗسَيَكْفُرُوْنَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُوْنُوْنَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (سورة مريم، ٨١-٨٢). فالآية ٨٨ المذكورة أعلاه من سورة مريم تشير إلى نفس هذه المجموعة من الناس، وبالتالي فهي تشير إلى "الآلهة الأخرى" التي اختار المشركون أن يعبدوها، بدلاً من عيسى عليه السلام. وهذا واضح بجلاء حسب سياق النص. لهذا يمكن القول إن كلمة الولد تعني "الابن" فقط عندما تُفصل الآية عن سياقها. وعليه، فإنه عندما يكون لكلمة مذكورة في القرآن الكريم أكثر من معنى (وجه)، كما هو الحال هنا، فإن الطريقة الصحيحة لقراءتها هي مراعاة السياق لأجل تحديد المعنى الصحيح للكلمة. علاوة على ذلك، على المترجمين مراعاة معنى الكلمات العربية وقت نزول القرآن عند اختيارهم للترجمة.

الوجوه المتعلقة بالنبي محمد ﷺ

سنقدم الآن بعض الأمثلة للوجوه المرتبطة بالنبي محمد ﷺ. المثال لأول هو الآية القصيرة في سورة المدثر ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر، ٦)، وقد نُقلت هذه الآية للغة الإنجليزية بأشكال مختلفة على النحو التالي:

ترجمة الخالدي	Give not, hoping to gain more
ترجمة جونز	Do not show favours seeking gain
ترجمة آربري	Give not, thinking to gain greater

لقد فهم المترجمون الثلاثة الفعل "تمنن" على أنه يعني "المنح" أو "إبداء لإحسان". فبالرغم من أن هذا المعنى هو ما يتبادر للأذهان من أول وهلة، إلا أنه في الواقع لا يتوافق وسياق النص، خصوصا، والسياق المقالي والمقامي، عمومًا. فسورة المدثر هي من سور الوحي الأولى التي نزلت على النبي ﷺ، والتي تشير إلى بداية النبوة. فحسب ترجمة آربري هناك حقيقة تاريخية تتمثل في أنه لم يكن لدى النبي ﷺ، في تلك الفترة بالذات، أي أشياء مادية يتنازل عنها كي يكسب شيئا بدلاً عن ذلك، وعليه فإنه

Copyright © 2023 JCMS

عند النظر إلى الآية في ضوء سياقها التاريخي، يمكن فهمها على أنها تعني لا تضعف، أو تشعر بالوهن. علاوة على هذا، قد تم تفصيل السياق في سورة المزمل التي سبقتها والتي تتناول نفس المقام، أي وقت تكليف محمد ﷺ بالنبوة، عندما طُلب منه حسب الآية "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" [المزمل،٥]

آربري Keep vigil at night … We shall cast upon thee a weighty word

حليم We shall send a momentous message down to you

يوضح التقصي القرآني لهذا المقام أن الرسول ﷺ شعر بالرهبة من أوامر المولى عز وجل، وكان لا بد من إخباره "ولا تمنن تستكثر" أي لا تضعف، وتشعر بالإرهاق من كثرة الأمور الموكلة إليك. وهذا ما تؤكده سياقيا الآية التالية من سورة المدثر ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر، ٧) (Be patient unto they Lord, Arberry). والأساس المنطقي من وراء هذه القراءة المختلفة هو أن الفعل "تمنن" يملك وجها آخرا، وهو ما يمكن رؤيته في عبارة "حبل منين" والتي تحمل معنى "حبل ضعيف" (الرازي، ١٩٩٩).[٣] فعند اقترانها مع كلمة "منّ" (أمر)، يمكن أن يعني الفعل "التعب أو الضعف بسبب تكليف ما". وعليه فإن السياق في الآية السادسة من سورة المدثر يحدد مفهوم كلمة "تمنن" لتعني بذلك "ضعيف" في ضوء الأدلة النصية التي قبلها في سورة المزمل التي تتعلق بالنبي ﷺ وتكشف عن طبيعة إحساسه في بداية الدعوة.

هنالك كذلك مثالان للوجوه متعلقان بالنبي ﷺ وتتضمن أداة التعريف "ال"، والتي يمكن أن تكون جنسية (بمعنى "عامة"، تشير إلى شمول أفراد جنس الاسم المعرف بها) أو "عهدية" ("خاصة"، للدلالة على كيان محدد معروف أو معهود لدى المخاطَبين). ويمكن معرفة الأول في مثال كلمة الناس في سورة الإسراء، الآية ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ اَنْ يُّؤْمِنُوْٓا اِذْ جَآءَهُمُ الْهُدٰٓى اِلَّآ اَنْ قَالُوْٓا اَبَعَثَ اللّٰهُ بَشَرًا رَّسُوْلًا﴾ حيث ترجمها بيكثال كالآتي:

[٣] يعد هذا التفسير أحد الوجوه الأربعة التي ذكرها الرازي للآية: حيث قال: "ورابِعُها –أي ورابع أوجه تفسير الآية": "لا تَمْنُنْ" أيْ: لا تَضْعُفْ؛ مِن قَوْلِهِمْ: حَبْلٌ مَنِينٌ، أيْ ضَعِيفٌ، يُقالُ: مَنَّهُ السَّيْرُ، أيْ أضْعَفَهُ. والتَّقْدِيرُ: فَلا تَضْعُفْ أنْ تَسْتَكْثِرَ مِن هَذِهِ الطّاعاتِ الأرْبَعَةِ الَّتِي أُمِرْتَ بِها قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ، ومَن ذَهَبَ إلى هَذا قالَ: هو مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿أفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أعْبُدُ﴾ [الزُّمَر: ٦٤] أيْ: أنْ أعْبُدَ، فَحُذِفَتْ "أنْ"، وذَكَرَ الفَرّاءُ أنَّ في قِراءَةِ عَبْدِ اللَّهِ "ولا تَمْتَنَّ تَسْتَكْثِرُ" وهَذا يَشْهَدُ لِهَذا التَّأْوِيلِ، وهَذا القَوْلُ اخْتِيارُ مُجاهِدٍ. تفسير الرازي، سورة المزمل، الآية ٦.

Copyright © 2023 JCMS

> And naught prevented mankind (al-nās) from believing when the guidance came unto them save that they said: Hath Allah sent a mortal as [His] messenger?

يشير آربري في ترجمته لهذه الآية إلى أن كلمة الناس يقابلها "men" أي"الرجال" بدلاً من "mankind" أو "البشرية"، بينما ترجم الخالدي وجونز كلمة "mankind" إلى "الناس". ومع ذلك، فإني اخترت في ترجمتي لكمة الناس لفظ 'these people' والتي تعني "هؤلاء الناس". في الحقيقة، فإن مصطلح "البشرية" لا يمكن أن يكون مقصودا في هذا السياق، لأننا على دراية بأن العديد من الشعوب قد جاءها رسل، وأنه لا يمكن أن يقال إن البشرية جمعاء وجدوا فكرة الأنبياء غريبة أو سببًا لعدم الإيمان. فعند النظر إلى الآية في سياق الآية السابقة، تظهر لنا صورة مختلفة. في هذه الآية يتحدى كفار مكة النبي ﷺ أنهم لن يؤمنوا حتى يُنزل الله أو الملائكة ليروهم وجهاً لوجه. كما أن القرآن يخبرنا أيضًا في آيات أخرى، نحو ما جاء في الآية ٧ من سورة الحجر ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ اُمَّةٍ اَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُوْنَ﴾، والآية ٧ من سورة الفرقان ﴿وَقَالُوْا مَالِ هٰذَا الرَّسُوْلِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِيْ فِى الْاَسْوَاقِۗ لَوْلَآ اُنْزِلَ اِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوْنَ مَعَهٗ نَذِيْرًا﴾، أن أهل مكة طالبوا أن ينزل ملك لينصر النبي ﷺ، أو ينزل الله رسولًا ملكا وليس ببشر. وعليه، فإن السياق المباشر والأفسح للقرآن يوضح أن الناس الذين طلبوا مثل تلك التحديات من النبي ﷺ في الآية المذكورة لم يقصدوا الإنسانية عامة، بل كان المقصود "هؤلاء الناس [من أهل مكة]". ولذلك، أدى هذا النقص في إدراك ومعرفة "ال" العهدية إلى ظهور العديد من الأمثلة الأخرى من الأخطاء التفسيرية.

سياق القَسم

هناك مثال واضح للدور الجوهري للسياق في عدد من سور القرآن الكريم والتي تبدأ بقَسم على وزن "والفاعلات" (كما في سورة الصافات، الذاريات، المرسلات، النازعات، والعاديات)، حيث يعتبر القَسم قضية مهمة تستحق بعض التفصيل خاصة في ضوء التحديات والإشكالات المواجهة عند ترجمة القرآن الكريم. يتألف القَسم في هذه السور من اسم ضمني موصوف باسم الفاعل، وهذا التركيب مألوف كثيرا في اللغة العربية، والتي بموجبها يكون معنى الصفة واضحًا في الثقافة دون الحاجة إلى الاسم الموصوف. وهكذا، تبدأ سورة العاديات بقَسم المولى عز وجل بالعاديات التي أصلها من الجذر "عدو" (جري،

Copyright © 2023 JCMS

سرعة، ركض، اندفاع، سباق، انطلاق)، وعليه يمكن فهم أن هذا القَسم يشير إلى الخيول، ولو بدون ذكر الاسم.

انتهج الإمام البيضاوي وغيره من المفسرين المتقدمين النظر إلى الكلمات المنفردة بمعزل عن بعضها البعض عند تفسيرهم لآيات القَسم في القرآن الكريم. وهذا يعني أنه على الرغم من فهمهم للقراءة السياقية لتلك العبارات، إلا أنهم كانوا حريصين على الإشارة إلى جميع البدائل الممكنة لكل كلمة على حدة، دون الاستناد إلى السياق لاستبعاد الخيارات غير المناسبة سياقيا. ففي الآيات الست الأولى من سورة الذاريات، يقسم الله تعالى بأربع أمور ﴿وَالذّٰرِيٰتِ ذَرْوًاۙ. فَالْحٰمِلٰتِ وِقْرًاۙ. فَالْجٰرِيٰتِ يُسْرًاۙ. فَالْمُقَسِّمٰتِ اَمْرًاۙ. اِنَّمَا تُوْعَدُوْنَ لَصَادِقٌۙ. وَّاِنَّ الدِّيْنَ لَوَاقِعٌۗ﴾ (الذاريات، ١-٦)

في تفسيره للآية الأولى، والذاريات ذروا، يشير الإمام البيضاوي إلى ثلاثة تفسيرات لهذه الآية: أنها يمكن أن تشير إلى (١) الرياح تذرو التراب وغيره، (٢) أو النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد، و (٣) أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرهم.

وبالنسبة للآية الثانية، فالحاملات وقرا، يذكر الإمام البيضاوي أربعة تفسيرات محتملة للآية على أنها تصف (١) السحب الحاملة للأمطار، (٢) الرياح الحاملة للسحاب، (٣) النساء الحوامل، (٤) أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرهم.

وفي قراءته للآية الثالثة، فالجاريات يسرا، ذكر الإمام البيضاوي: (١) السفن الجارية في البحر سهلا، (٢) الرياح الجارية في مهابها، (٣) الكواكب التي تجري في منازلها. أما بالنسبة للقَسم الرابع والأخير، فالمقسمات أمرا، فيقترح (١) الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، (٢) ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة، و (٣) الرياح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب (البيضاوي، ١٩٨٨).

من الواضح أن هذا النوع من التفكير يسبب الاستمرار في اقتراح مفردات لها معنى محتمل يتعلق بالكلمات الفردية في القَسم، ولكن بمعزل عن السياق. فكما يتضح من الآيات الخامسة والسادسة من سورة الذاريات، فإن السياق هنا هو قَسم لإثبات حقيقة يوم القيامة. ومع ذلك، فإن الإمام البيضاوي في مناقشته لمختلف المعاني المحتملة للقَسم لم يربط بين الأمور المقسوم بها و المقسوم عليها. ويمكن القول إن البيضاوي قد ركز كثيرا على العناصر المقسوم بها بدل التركيز على أهداف النسق ككل،

Copyright © 2023 JCMS

والذي كان قَسمًا بالريح التي تشتت المطر، وتحمل السحب، وتهب بسهولة للوصول إلى وجهتها وتنشر الأمطار فيها. فإشارتها إلى الرياح واضحة جدًا من آيات قرآنية أخرى، حيث يتم ذكر هذا المجاز صراحة في سورة الأعراف الآية ٥٧، وسورة الروم، الآية ٤٨ وسورة فاطر، الآية ٩. لقد كان الإمام البيضاوي على علم بهذه القراءات لنسق القَسم، وقد قام بإدراجها مع باقي الاحتمالات الأخرى في جميع الآيات، ولذلك لم ير الترابط وما الذي يشير إليه المجاز بأسره. لقد اقترحت في أحد منشوراتي السابقة أنه لا يمكن قراءة هذه الآيات بشكل واقعي إلا كقَسم استدلالي (عبد الحليم، ٢٠١٣)، يهدف إلى إثبات يوم القيامة، وقد اقترحت الترجمة التالية:

> "By those [winds] that scatter far and wide, that are heavily laden, that speed freely, that distribute [rain] as ordained, what you are promised is true: the Judgement will come."

فيُقصد من القَسم إثبات أنه مثلما تجري الرياح بالسحب والأمطار إلى أرض ميتة لتنبت بها الحياة، ستخرجون من الأرض يوم القيامة، قال تعالى: "وكذلك تخرجون" (سورة الأعراف، ٥٧). علاوة على ذلك، فإن الذي أرسل المطر هو الذي سيحيي الموتى، قال تعالى ﴿فَانْظُرْ اِلٰٓى اٰثٰرِ رَحْمَتِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۗ اِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتٰىۖ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (الروم، ٥٠). لذلك فإن تجاهل المقام، والسياق، والتناص أو التعالق في القَسم المذكور في السور الخمس أعلاه، يجعل المقاطع غير واضحة ويخلق نوعا من البيان المتناقض مع موضوع القَسم، مقارنة بأجزاء أخرى من القرآن الكريم التي تذكر بوضوح وبشكل محدد تشبيه إخراج النباتات من الأرض الميتة بإخراج الناس من قبورهم.

الانسجام والوجوه

إن الاهتمام بالوجوه في الترجمة يوحي إلى البعض بوجود تناقض صارخ عند ترجمة نفس الكلمة بطرق مختلفة، وهذا غير وارد. فبمجرد تحديد معنى كلمة ما أو وجهها، يجب أن يكون هناك انسجام في استخدام نفس الترجمة لتلك الكلمة متى وردت بهذا المعنى (الوجه). ومع ذلك، فإن الفرض التلقائي لمعنى واحد على كلمة متعددة الوجوه، كما وضحت في المناقشة أعلاه، يمكن أن يؤدي إلى وقوع أخطاء وأمور غير منطقية. فعلى سبيل المثال نأخذ كلمة العالمين التي وردت ٧٣ مرة في القرآن الكريم في سياقات مختلفة ومتعددة، فإن ترجمة العالمين باستخدام كلمة واحدة في كل هذه السياقات من شأنه أن يسبب الفوضى.

Copyright © 2023 JCMS

فكلمة العالمين يمكن أن تعني "كل العوالم" كما في سورة الفاتحة، الآية ٢ أو "جميع النساء" في سورة آل عمران، الآية ٤٢ أو "جميع الناس الآخرين" في سورة الشعراء، الآية ١٦٥،] تَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ]، حيث تبين هذه الآية الأخيرة عن اعتراض لوط عليه السلام لممارسات قومه، وقد قام جونز بترجمة الآية كالآتي:

'Do you come to the males of created beings?

فالترجمة تعني هنا "اتأتون الذكران من جميع المخلوقات"، ولكن المقصود في الآية هو الذكران من بني آدم، وهذا ما كان يعترض عليه لوط عليه السلام، لذلك فإن ترجمة كلمة العالمين إلى "جميع المخلوقات" تجعل من معناها يتجاوز نطاق الذكور من بني آدم. وبنفس المنهج ترجم أربري كامة العالمين إلى "الذكران من المخلوقات" أو 'male beings'.

هناك مثال آخر يمكن رؤيته حول تعدد المعاني في كلمة الكتاب، والتي وردت ١٢٣٠ مرة في القرآن الكريم، وحملت عشرة معان مختلفة، والتي تعني الكتاب المقدس، أو الكتابة، أو سجلات أعمال الإنسان في الدنيا، أو وثيقة شرعية لإعتاق عبد مثلا، أو تقييد دَين. وعليه فإن الاستخدام المستمر لكلمة "book" للإشارة إلى كلمة "كتاب" غير دقيق، كما أني لا أترجم كلمة "كتاب" عند الإشارة إلى القرآن الكريم إلى: "book" لأنها تشير بوضوح إلى نزول آية، آيات، أو سورة واحدة، نزلت كل منها على حدى طوال ٢٣ عامًا. وليس لكتابٍ بالمعنى الحديث. وعليه فإنه لا ينبغي التطبيق الآلي لقاعدة الانسجام المعروفة، بل يجب التعامل مع القرآن الكريم كنص له شروطه الخاصة.

إن ظاهرة الوجوه لا تحدث فقط للكلمات المنفردة، ولكن يمكن أيضًا حدوثها في حالة المفردات ذات البنية المركبة، حيث يمكن للسياق وحده تحديد الخيار الصائب، فعلى سبيل المثال يمكن لعبارة ما أن تكون كاملة عند نقطة محددة أو أنها متعدية وتحتاج إلى استمرارية الخطاب لتفهم. قال تعالى ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَآئِدَ﴾ (المائدة، الآية ٩٧)، من المحتمل أن تكون هذه العبارة مكتملة، ولكن تليها عبارة ﴿ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوْٓا اَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ وَاَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾ (المائدة، الآية ٩٧) والتي تُرجمت بشكل مختلف على النحو التالي:

جونز	so that you may know that God knows all that is in the heavens and all that is in the earth
الخالدي	this is in order that you may know that God knows what is in the heavens and what is on the earth, and that God is Omniscient

Copyright © 2023 JCMS

داوود so that you may know that God has knowledge of all that the heavens and the earth contain

لقد فهم المفسرون هذا أيضًا على أنه جملة قصدية بلام التعليل (لام الغاية) بحيث تُقرأ "لكي تعلموا أن الله يعلم...". فمن غير المعقول أن الكعبة والأضاحي وُضعوا "لكي نعلم أن الله يعلم" وهكذا، فقد حاول المفسرون قراءة هذه الآية بطرق مختلفة، ومنها أن علم الله تعالى ضروري لتحديد حاجة الناس للكعبة والأشهر الحرم وما إلى ذلك. وعليه فهم ينظرون إلى السياق على أنه يدل على علم الله الواسع، ولكن أرى أن هذه ليست الطريقة الصحيحة لقراءة النص. فاقتراحي أن تتوقف العبارة قبل ذكر كلمة ذلك أي عند كلمة القَلَآئِد. إذن، عبارة "ذلك" نفسها جملة كاملة بمعنى: "أن الله عز وجل أمر بكل هذا "، ثم نقطة نهاية متبوعة بأمر (لام الأمر) حتى يفهم القارئ أن الله تعالى على علم بكل شيء، بما في ذلك ما إذا كانوا سيطيعون أمره من عدمه، وأن لله سلطة كل شيء ويمكنه معاقبة من يعصي أوامره. فهذه القراءة للآية (٩٧) يدعمها أمران: اشتمال الآية الثانية من نفس السورة على ذكر أوامر الله تعالى بالإضافة إلى أمرٍ بعدم مخالفتها، وانتهت الآية بقوله تعالى ﴿اِنَّ اللّٰهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة، الآية ٢). نفس العبارة ﴿اِعْلَمُوْٓا اَنَّ اللّٰهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِۙ وَاَنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ وردت مرة أخرى في الآية (٩٨)، أي مباشرة بعد الآية التي ناقشناها. فالجملة بعد كلمة "ذلك" التي أقترح أن يُنظر إليها أنها جملة كاملة في الآية (٩٧) تكرر حدوثها بشكل مشابه في مواضع أخرى من القرآن العظيم، كما هو الحال على سبيل المثال في سورة الحج، الآيتان (٣٠) و (٦٠). فالسياق في الآية (٩٧) من سورة المائدة هو وعيد وتهديد وليس الإخبار عن علم الله الواسع. وعليه فهذا السياق هو الذي يحدد التجزيئ من الوجه الصحيح للآية، قراءةً وترجمةً.

وفي الآية ٣٨ من سورة الأنعام مثال آخر، عندما رفض الكفار النبي ﷺ وتعاليمه، أخبره الله عز وجل الله ألا يقلق بشأن هؤلاء الناس لأنهم كالأموات الذين لا يسمعون. فنقرأ في ترجمة آربري الآيات ٣٨-٣٧ كالتالي:

> They also say, 'Why has no sign been sent down to him from his Lord?' Say … No creature is there crawling on the earth, No bird flying with its wings, but they are nations like unto yourselves. We have neglected nothing in the Book (al-kitāb); then to their Lord they shall be mustered.

وهنا طالب الكفار المتعنتون بآية، وقد أُوتوها عندما ذكر الله مجتمعات الطيور والحيوانات. يتابع آربري في ترجمته لهذه الآية: We have neglected nothing … to their Lord they will

Copyright © 2023 JCMS

return,، فهذه العبارة فُهمت عادة أنها تشير إلى حقيقة أنه حتى الطيور والحيوانات مذكورة في القرآن، وأنهم سيُجمعون يوم القيامة أمام الله تعالى. وهذا في رأيي فهم مضلل؛ فبناءً على قراءة مستحضرة للسياق أرى تحولا في الخطاب الذي يبدأ من عبارة "ما فرطنا" والتي لا تشير إلى الطيور والحيوانات، بل إلى الكفار المذكورين سابقًا (في الآية ٣٦)، لإنذارهم بأن الله قد كتب كل شيء في صحف أعمالهم وأنهم سيُجمعون أمامه للحساب. وهذا يدعمه قوله تعالى ﴿وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِاٰيٰتِنَا صُمٌّ وَّبُكْمٌ فِى الظُّلُمٰتِۗ مَنْ يَّشَاِ اللّٰهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَّشَأْ يَجْعَلْهُ عَلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ﴾ (الأنعام، ٣٩)، التي كررت ما ذُكر في الآية (٣٦) ﴿اِنَّمَا يَسْتَجِيْبُ الَّذِيْنَ يَسْمَعُوْنَ ۘ وَالْمَوْتٰى يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ ثُمَّ اِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ﴾ (الأنعام، ٣٦). فسياق العبارة إذن، يحذر المنكرين لوحي المولى عز وجل بدلاً من تقديم معلومات حول قيام الحيوانات والطيور يوم الحساب. وعليه فإن الذين يتجاهلون السياق يجزئون المواد بشكل غير صحيح ويفهمون أن كلمة الكتاب تشير إلى القرآن بدلاً من صحف أعمال العباد. فمِثل هذه القراءة لهذه الآية لها دلالات لاهوتية، حيث إن هناك من يستخدمها، إذا أخذنا مثال الكتاب أنه يعني القرآن، لتبرير ادعائهم بأننا نحتاج فقط إلى الاعتماد على القرآن الكريم وعدم اللجوء إلى كتب أخرى، على أساس أن الله تعالى قد قال ﴿وَمَا مِنْ دَاۤبَّةٍ فِى الْاَرْضِ وَلَا طٰۤىِٕرٍ يَّطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ اِلَّآ اُمَمٌ اَمْثَالُكُمْ ۗمَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتٰبِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ اِلٰى رَبِّهِمْ يُحْشَرُوْنَ﴾ (الأنعام، الآية ٣٨)

آية السيف

> When the [four] forbidden months are over, wherever you encounter the idolaters, kill them, seize them, besiege them, wait for them at every lookout post; but if they repent, maintain the prayer, and pay the prescribed alms, let them go on their way, for God is most forgiving and merciful (Abdel Haleem)

﴿اِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۚ وَاِنْ تُصِبْكَ مُصِيْبَةٌ يَّقُوْلُوْا قَدْ اَخَذْنَآ اَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُوْنَ﴾ (التوبة، ٥٠)

ربما تكون "آية السيف" واحدة من أشهر آيات القرآن الكريم ومن أكثر الآيات التي أسيئ فهمها واقتباسها من طرف دعاة الغلو و التطرف وحتى بعض الأكاديميين المستشرقين من دعاة الحداثة. على سبيل المثال، ترجم مايكل كوك الآية المذكورة أعلاه كالآتي:

Copyright © 2023 JCMS

> Then, when the sacred months are drawn away, slay the polytheists wherever you find them, and take them, and confine them, and lie in wait for them at every place of ambush. But if they repent, and perform the prayer, and pay the alms, then let them go their way: God is Allforgiving, All-compassionate.

ثم يفسر كوك الآية على النحو التالي: "وبعبارة أخرى، يجب قتل المشركين إلاّ أن يؤمنوا. المشرك هو من يقوم بإشراك شخص أو شيء مع الله بالعبادة؛ يمتد المصطلح إلى اليهود والمسيحيين، بل إلى غير المؤمنين (كوك، ٢٠٠٠، الصفحة ٣٤).

هذا تأكيد صريح عند تطبيقه على القرآن الكريم الذي يشير إلى مصطلحات منفصلة ومحددة للغاية خاصة عند اليهود والمسيحيين وغير المؤمنين. إضافة إلى ذلك وكما سيظهر بشكل واضح في المناقشة أدناه، تشير الآية إلى مجموعة واحدة ومحددة من المشركين فقط، بدلاً من أن يكون اتهاما عاما، وأمر القتل لا يمتد إلى اليهود والمسيحيين، بل إلى المشركين.

في تفسير كوك للآية الخامسة من سورة التوبة يقول في مناقشته بأنه: "في المجتمع الغربي المعاصر، من البديهي إلى حد ما أن المعتقدات الدينية للآخرين يجب التسامح معها وربما تحظى بالاحترام" (كوك، ٢٠٠٠، الصفحة ٣٣). فيستخدم قوله هذا ليناقض وينقد هذه الآية القرآنية. وعلى كل حال، لقد أصبح هذا الانتقاد للإسلام واسع الانتشار؛ فعلى سبيل المثال، في سنة ٢٠٠٦، قال البابا بنديكت السادس عشر في محاضرته في ريجنسبورغ أن "الآية (٢٥٦) من سورة البقرة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، وفقًا لبعض الخبراء، تُقرأ ضمن بداية البعثة، أي عندما كان محمد لا يزال عاجزًا ويتعرض للتهديد. ولكن من الطبيعي أن الإمبراطور كان على علم بهذه التعليمات، والتي تم تطويرها لاحقًا وتدوينها في القرآن، فيما يتعلق بالحرب المقدسة". وفي الواقع، تم تفسير هذه الآية بالمثل من قبل العديد من المسلمين، سواء في الماضي أو الحاضر، وقد استخدمها المتطرفون والجماعات الإرهابية في تبرير آرائهم وأفعالهم. فيما تبقّى من هذه المقالة، سأجري تحليلًا مقرّبا للنص إلى جانب استقصاء آراء مؤلفين اثنين هما الأكاديمي مايكل كوك المذكور أعلاه، وكاتب القرن الخامس/الحادي عشر ابن سلامة. وعليه سأناقش من خلالهما الأساطير التي تم إنشاؤها وادعاؤها حول هذه الآية. فكما سيتضح في المناقشة التالية، لا يمكن فهم الآية الخامسة من سورة التوبة بشكل صحيح بعزلها وإخراجها عن سياقها. هذا النوع من الاستراتيجيات المضللة مخالف للمعايير اللغوية السليمة والممارسات الأكاديمية المناسبة. في الواقع، يجب قراءة تلك الآية مع القسم الأول بأكمله من السورة (الآيات ١-٢٨)، نظرا لترابطهم ومعالجتهم لنفس

Copyright © 2023 JCMS

الموضوع. وبالتالي سيقدم الجزء التالي تحليلًا سياقيًا للآية الخامسة من سورة التوبة في ضوء تلك الآيات، كما هو موضح في النص القرآني، ولهذا الغرض سيتم أيضا ذكر ترجمة آربري، التي استخدمها كوك.

تبدأ الآية الخامسة من سورة التوبة ﴿فَاِذَا انْسَلَخَ الْاَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ﴾، ولكن قبل هذا ذكر الله تعالى إعلان المشركين عن الإنهاء الوشيك للمعاهدة التي وضعوها مع المؤمنين، ﴿اِلَّا الَّذِيْنَ عَاهَدْتُّمْ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ (التوبة، ٤). فوق هذا، تحدد الآيتان الأولى والثانية من سورة التوبة المستهدفين في الخطاب من المشركين في الآية الخامسة من التوبة؛ أي أنتم المشركون الذين عندكم ميثاق مع المسلمين. تعلن الآية الثانية كذلك لهؤلاء المشركين، ﴿فَسِيْحُوْا فِى الْاَرْضِ اَرْبَعَةَ اَشْهُرٍ﴾، مما يعني أنه حتى بعد أن ينقض المشركون المعاهدة، لا يُسمح للمسلمين بالدخول مباشرة في حرب معهم. وعليه تم منح المشركين مدة أربعة أشهر فضلا، حيث يمكن لهم أن يسيحوا في الأرض كما كانوا يفعلون من قبل دون أن يتدخل المسلمون في أمرهم، بالرغم من ذلك تم تذكيرهم بأن الله بريء من المشركين. قيل لنا إن هذا البلاغ قد تم إصداره بطريقة تؤكد وصوله إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية، في أوج فترة الحج ﴿وَاَذَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖٓ اِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْاَكْبَرِ اَنَّ اللّٰهَ بَرِيْٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ ۙ وَرَسُوْلُهٗ﴾ (التوبة، ٣). وكما هو الحال دائمًا مع القرآن الكريم، فإنه ترك فرصة للمشركين وحثّهم على التوبة ﴿فَاِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (التوبة، ٣). وفي الآية التي تليها يستثني القرآن فرقة من المشركين في قوله تعالى ﴿اِلَّا الَّذِيْنَ عَاهَدْتُّمْ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوْكُمْ شَيْـًٔا وَّلَمْ يُظَاهِرُوْا عَلَيْكُمْ اَحَدًا فَاَتِمُّوْٓا اِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ اِلٰى مُدَّتِهِمْ ۗ اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ﴾ (التوبة، ٤).

نتيجة لذلك، عندما تُقرأ الآية الخامسة ضمن سياق الآيات الأربع السابقة من سورة التوبة، نراها بوضوح تشير، وبشكل صريح، إلى المشركين الذين لم يحترموا المعاهدة والذين ﴿وَّلَمْ يُظَاهِرُوْا عَلَيْكُمْ اَحَدًا﴾ (التوبة، ٤). أي أولئك الذين خانوا عهدهم و دعّموا آخرين ضد المسلمين، فقد دخلوا بذلك في حالة حرب. فألف التعريف في عبارة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ﴾ ليست بالجنسية، بل عهدية، والتي تعود فقط على المشركين المذكورين في الآيات من ١ إلى ٤. "ال" العهدية هي سمة أساسية في قواعد اللغة العربية، وفي تفسير كوك المذكورة أعلاه، يبدو أنه لم يفسر الآية بالشكل الصحيح لأنه، كما اعترف، قد اعتمد ترجمة آربري، ولم يعتمد النص العربي (كوك، ٢٠٠٠). فقد قام كوك بعزل الآية الخامسة من التوبة

Copyright © 2023 JCMS

عن كل شيئ حولها، فإذا قُرِئت باللغة العربية أو حتى في الترجمة، مع مراعاة الآيات التي قبلها يصبح التفسير الصحيح واضحًا جليا، ولكن كوك أهمل في مناقشته كلا من النص العربي والسياق.

وبالمثل، فإن ترجمة آربري للآية ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ﴾ أيضا مضللة، ويجب أن تقرأ في الواقع أنه "يمكنكم قتل المشركين". في علم لسانيات اللغة العربية والفقه الإسلامي، تأتي الصيغة الأمرية في مجموعة واسعة من المعاني، (أحصى محمد صالح ١٥ معنى مختلفا). فعلى سبيل المثال، يمكن استخدامها لإصدار أوامر أو بيان إباحة أو في سياق النصيحة والتشجيع (صالح، ١٩٩٣). وعليه فإن استعمال صيغة الأمر في هذه الحالة يتوافق مع القاعدة الفقهية (المستخلصة من تحليل نص القرآن وأجمع عليها جمهور الفقهاء) التي تدعى الأمر بعد الحظر للإباحة (الرازي، ١٩٨٠).

لإعطاء مثال حول "صيغة الأمر بمعنى الإباحة": في شهر رمضان يمتنع المسلمون عن الأكل والشرب أثناء النهار، فعندما يخبرهم القرآن بأن يأكلوا ويشربوا في فترة الليل، هو لا يأمرهم بذلك، بل يعيد فقط ذكر حالة الإباحة التي كانوا عليها (صالح، ١٩٩٣). وفقًا لهذا، فإن انتهاء مهلة الأشهر الأربعة التي لم يُسمح خلالها للمسلمين بمحاربة المشركين الذين نقضوا عهدهم، في الحقيقة لم يأمرهم بالقتال، ولكن أعادهم إلى حالة البراءة الأصلية التي تفيد الإباحة. فالأمر يعني، ببساطة، أنه لم يكن هناك التزام بالامتناع عن محاربة المشركين. وعليه، فقد قال الإمام الرازي:" ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى عِنْدَ انْقِضَاءِ هَذِهِ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ أَذِنَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ "(الرازي، ١٩٨٠، الصفحة ٢٢٥، الجزء ١٥).

فكما ذكرنا سابقًا، فإنه في تعليقه على هذا الجزء من سورة التوبة، الآية الخامسة، يقول كوك في تفسيره "بعبارة أخرى، اقتلوهم ما لم يعتنقوا الإسلام". ولكن، عندما يتم قراءة الآية في سياقها المناسب يتضح أن تفسير كوك غير صحيح، لأن القتل ليس سوى واحد من أربعة بدائل مباحة مذكورة. تلك البدائل كما ذكر آربري هي أخذهم (أي إلقاء القبض عليهم)، وحبسهم، والتربص بهم عند الكمائن.

وجاء في الجزء الثاني من الآية الخامسة من سورة التوبة ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (التوبة، ٠٥). لا ينبغي قراءة هذا كشرط لعدم القتل: مما يعني أن لا أن يقتل المسلمون المشركين إلاّ أن يتوبوا. فعندما ينظر المرء إلى المصطلحات العربية المستخدمة هنا فإنه يلاحظ وجود الأداة "إنْ"، التي تختلف عن الأداة البدل "حتى" والتي تفيد التعليل والغاية، على سبيل المثال، قال

Copyright © 2023 JCMS

تعالى ﴿وَقٰتِلُوْهُمْ حَتّٰى لَا تَكُوْنَ فِتْنَةٌ﴾ (البقرة، ١٩٣)[٤] إذن فالأمر الوارد في اللآية ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، ٠٥)، يعني أنه 'يجب عليكم أنتم أيضًا أن تغفروا لهم وتتوقفوا عن ملاحقتهم'. وهذا التفسير تؤكده الآية (١١) من سورة التوبة، قال تعالى ﴿فَاِنْ تَابُوْا وَاَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتَوُا الزَّكٰوةَ فَاِخْوَانُكُمْ فِى الدِّيْنِ﴾ (التوبة، ١١). لقد فتحت هذه الآية الباب أمام أي مشرك أن يأخذ هذا الاختيار بعين الاعتبار. وعليه فقد تم بالفعل إثبات أنه تم ذِكر الاستثناء في الآية ٤ وليس الآية ٥ ولا قبلها. هذا مثال على أن القرآن الكريم شديد التقييد والحذر كلما تناول موضوع القتال (عبد الحليم، ٢٠١٠). يمكن أيضًا ملاحظة هذا المستوى من الحذر في الآيات التي ناقشناها عبر تكرار الأداة "إذا" الشرطية في الآيات ٣ و ٥ و ٦ و ١١ و ١٥. وهناك أيضًا تكرار للأداة "إلاّ" في الآيات ٤ و ٧. يمكن كذلك رؤية التقييد في نهايات الآيات، حيث يتم حث المسلمين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، ٤)؛ ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، ٥)؛ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، ٧)؛ ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، ١٥)؛ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (التوبة، ١٦)

هل هناك أي شيء جديد في "آية السيف"؟

تعد سورة التوبة آخر سورة يذكر فيها القتال بحسب الترتيب الزمني لسور القرآن الكريم، فإباحة القتال واعتقال المشركين الذين نكثوا عهدهم وكانوا بالتالي في حالة حرب مع المسلمين لم تقدم أي شيء جديد. كما تعتبر الآية ٣٩ من سورة الحج زمنيا أول آية أباح الله فيها القتال للمسلمين فقال ﴿اُذِنَ لِلَّذِيْنَ يُقَاتَلُوْنَ بِاَنَّهُمْ ظُلِمُوْاۗ وَاِنَّ اللّٰهَ عَلٰى نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرُۙ﴾ (الحج، ٣٩)، كما قال تعالى في سورة الأنفال ﴿الَّذِيْنَ عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَهُمْ فِيْ كُلِّ مَرَّةٍ وَّهُمْ لَا يَتَّقُوْنَ. فَاِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ. وَاِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْۢبِذْ اِلَيْهِمْ عَلٰى سَوَآءٍۗ اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْخَاۤئِنِيْنَ﴾ (الأنفال، ٥٦-٥٨) وكانت الآيتان قد نزلتا في السنة الثانية للهجرة، بعد معركة بدر، أي قبل حوالي سبع سنين من نزول 'آية السيف'.

[٤] كما ورد أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قد أدان مسلمًا قتل عدوًا في معركة بعد أن ألقى عليه الأخير السلام، معتقدًا أن الرجل كان يحاول فقط إنقاذ نفسه.

Copyright © 2023 JCMS

إن عبارة ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ التي وردت في سورة الأنفال، الآية ٥٧ كذلك مذكورة في سورة التوبة، قال تعالى ﴿كَيْفَ يَكُوْنُ لِلْمُشْرِكِيْنَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُوْلِهٖٓ اِلَّا الَّذِيْنَ عَاهَدْتُّمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِۚ فَمَا اسْتَقَامُوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيْمُوْا لَهُمْۗ اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ. كَيْفَ وَاِنْ يَّظْهَرُوْا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوْا فِيْكُمْ اِلًّا وَّلَا ذِمَّةًۗ يُرْضُوْنَكُمْ بِاَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبٰى قُلُوْبُهُمْۚ وَاَكْثَرُهُمْ فٰسِقُوْنَۚ﴾ (التوبة، ٧-٨). علاوة على ذلك، فإن سورة البقرة، وهي إحدى السور التي نزلت كذلك قبل 'آية السيف'، قد تضمنت القتال، قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوْاۗ اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾ (البقرة، ١٩٠)، من الواضح جدا هنا بأن تجاوز الحدود أو الاعتداء غير مشروع للمسلمين. فالآية ١٠ من سورة التوبة تورد أن المشركين هم من يعتدون. مرة أخرى، نقرأ في سورة البقرة ﴿وَاقْتُلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ وَاَخْرِجُوْهُمْ مِّنْ حَيْثُ اَخْرَجُوْكُمْ﴾ (البقرة، ١٩١). فهذا لا يختلف عما ورد في الآية ٥ من سورة التوبة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوْهُمْ﴾، أي المشركين الذين خانوا عهدهم. وبالمثل، فإن سورة النساء، وهي سورة مدنية سبقت سورة التوبة في الإشارة إلى المنافقين وحذرت المسلمين من التحالف معهم، قال تعالى ﴿اِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوْهُمْ وَاقْتُلُوْهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوْهُمْ﴾ (النساء، ٨٩).

آية السيف والنسخ

لا يتحمل العلماء المعاصرون وحدهم مسؤولية إساءة تفسير القرآن بناءً على تجاهل سياقية النص، فالمفسر والنحوي والمقرئ هبة الله ابن سلامة (ت. ٤١٠ هـ/١٠٢٠م) (ابن سلامة، ١٩٨٦) صاحب كتاب الناسخ والمنسوخ، هو مثال على التمسك الصارم بمفهوم النسخ، بمعنى أنه في نظره، تلغي بعض الآيات القرآنية بعضها الآخر، بدل أن تفرق أو تكمّل بعضها بعضا سياقيا. ووفقا لابن سلامة، فإن 'آية السيف' نسخت ١٢٤ آية في القرآن الكريم (ابن سلامة، ١٩٨٦)، ومن المثير للدهشة أنه يرى أول الجملة الرئيسية من الآية الخامسة من سورة التوبة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَيْثُ وَجَدْتُّمُوْهُمْ﴾ منسوخة بما أمر الله في نهاية الآية بقوله ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، ٠٥) (ابن سلامة، ١٩٨٦). إضافة إلى ذلك، يذهب ابن سلامة إلى القول إن الله قد نسخ عبارة التوبة في الآية ٦ في قوله ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة، ٦٠)

Copyright © 2023 JCMS

يوضح منهج ابن سلامة هنا كيفية فهمه لكلمة "نسخ"، وكيف يدفعه هذا الفهم إلى تقديم ادعاءات كبيرة حول النسخ في القرآن الكريم، والتي للأسف، لا تزال تتكرر باستمرار. وهذا يعطينا مثالاً على كيفية قيام بعض المؤلفين، في التراث الإسلامي والتقليد الأكاديمي، في كثير من الأحيان بتأييد ادعاءات أو أقوال من قبلهم دون تمحيص أو تحقيق. بالرغم من أن هذه الممارسة يمكن اعتبارها جزءا من النزاهة الأكاديمية من حيث إنها تفيد عدم تجاهل الأقوال، غير أن التقصي الدقيق لما قاله ابن سلامة لن يجدي أمام التحليل اللغوي أو النصي المناسب. في الواقع، أبان ابن سلامة عن تجاهل تام للسياق، وقام بتحريف أقوال موجزة ووضعها في غير محلها، كما يتضح من الأمثلة الموضحة أدناه:

فيما يتعلق بسورة البقرة، الآية ٨٣ قال تعالى ﴿وَاِذْ اَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِيْٓ اِسْرَآءِيْلَ لَا تَعْبُدُوْنَ اِلَّا اللّٰهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ اِحْسَانًا وَّذِى الْقُرْبٰى وَالْيَتٰمٰى وَالْمَسٰكِيْنِ وَقُوْلُوْا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة، ٨٣)،[٥] اعتبر ابن سلامة أن أمر المولى عز وجل في هذه الآية ﴿وَقُوْلُوْا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قد تم نسخه بآية السيف (ابن سلامة، ١٩٨٦). لكن من وجهة نظر منطقية، كيف يمكن لوصف أمر وجهه الله لبني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام يتعلق بموضوع سلوكي عام تجاه الآخرين أن يُنسخ بإباحة خاصة مُنحت للمسلمين زمن محمد ﷺ بمحاربة جماعة معينة من المشركين الذين خانوا ميثاقهم؟ فهذا المثال وحده يوضح تجاهل ابن سلامة التام للسياق كأساس منهجي.

هناك حالة أخرى في سورة غافر حين يعترف المشركون في جهنم، قال تعالى ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوْبِنَا فَهَلْ اِلٰى خُرُوْجٍ مِّنْ سَبِيْلٍ﴾ (غافر، ١١)، ثم ردت عليهم الملائكة، ﴿ذٰلِكُمْ بِاَنَّهٗٓ اِذَا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهٗ كَفَرْتُمْ ۚ وَاِنْ يُّشْرَكْ بِهٖ تُؤْمِنُوْا ۗفَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيْرِ﴾ (غافر، ١٢). يؤكد ابن سلامة بشكل صارخ وغامض، وخلافًا للسياق، نسخ معنى الحكم فِي الدنيا بِآيَة السَّيْف. (ابن سلامة، ١٩٨٦، الصفحة ١٥٢). فالمنسوخ حسب رأيه في الآية ١٢ من سورة غافر هي العبارات ﴿فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ﴾ و ﴿الْكَبِيْرِ﴾. والعجيب أن هذه العبارة التي نقلتها الملائكة لمن في جهنم يوم الآخرة قد تم تفسيرها على أنها منسوخة بآية تسمح بقتال المشركين الذين خالفوا صلح الحديبية.

في المثال الأخير من سورة الإنسان، الآية ٦، يذكر الله عز وجل الأبرار في الآخرة قائلا ﴿عَيْنًا يَّشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللّٰهِ يُفَجِّرُوْنَهَا تَفْجِيْرًا﴾ (الإنسان، ٦)، وفي الآية ٧ يوضح القرآن الكريم سبب

[٥] هذه الآية جزء من قسم طويل في سورة البقرة موجه إلى بني إسرائيل، بما في ذلك ما يقارب ٨٠ آية، بدءًا من الآية ٤٠.

Copyright © 2023 JCMS

هذه النعمة، قال تعالى ﴿يُوْفُوْنَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُوْنَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهٗ مُسْتَطِيْرًا. وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلٰى حُبِّهٖ مِسْكِيْنًا وَّيَتِيْمًا وَّاَسِيْرًا. اِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّٰهِ لَا نُرِيْدُ مِنْكُمْ جَزَآءً وَّلَا شُكُوْرًا﴾ (الإنسان، ٧-٩). على غرار الأمثلة السابقة، ومع عدم الالتفات إلى سياق الآيات على الإطلاق، يخبرنا ابن سلامة أن آية إطعام الأسير منسوخة بآية السيف! وفي نهاية كتابه، يؤكد ابن سلامة أن كل مَا كان في الْقُرْآن من قَوْله تَعَالَى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وقَوله تَعَالَى ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وَقَوله تَعَالَى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وَقَوله تَعَالَى ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ وَقَوله تَعَالَى ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ وَقَوله تَعَالَى ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، فَهَذَا وَمَا شاكله مَنْسُوخ بِآيَة السَّيْف. (ابن سلامة، ١٩٨٦، الصفحة ٢٠٩).

الخلاصة

لقد استخلصنا من خلال مناقشتنا السابقة في هذا المقال الأهمية الجوهرية للسياق في تحديد المعنى وتحقيق ترجمة وتفسير دقيقين وفاعلَين. كما رأينا أن خاصية الوجوه، أو تعدد المعاني، والذي لا يستوجب السياق إلا إحداها، هي إلى حد كبير جزء لا يتجزأ من أسلوب القرآن الكريم؛ كما يعتبر مفهوم السياق أحد خيرة ما اكتشف علماء البلاغة العرب من خلال دراساتهم للقرآن الكريم. لذلك، فإن اعتبار السياق يعد جزءا جوهريا في تفسير القرآن وترجمته إلى أي لغة أخرى.

لا يقتصر دور السياق في تحديد معنى الكلمات فحسب، بل له اعتبارات تتعلق بذكر شيء ما أو حذفه، ترتيب المحتوى، وكمية المعلومات المعطاة. على سبيل المثال، في سورة الإسراء، الآية ١٠١، أخبرنا الله تعالى ﴿وَلَقَدْ اٰتَيْنَا مُوْسٰى تِسْعَ اٰيٰتٍۢ بَيِّنٰتٍ﴾ (الإسراء، ١٠١)، فلفهم سبب ذكر ذلك هنا، يجب أن نقرأ الآيات ٩٠-٩٣، حيث تحدى أهل مكة النبي ﷺ وطلبوا منه ثماني معجزات، قائلين على سبيل المثال ﴿وَقَالُوْا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْاَرْضِ يَنْۢبُوْعًا﴾ (الإسراء، ٩٠)، وكان هذا قد أحزن النبي ﷺ، لذلك أكد له المولى عز وجل في الآية ١٠١ أن موسى عليه السلام أُعطي تسع معجزات ومع ذلك كفر فرعون برسالته وعوقب على كفره. وعليه فيما يخص هذه الآية بالذات، من الضروري معرفة السياق النصي في السورة لفهم سبب ذكر التسع آيات هنا.

وبالمثل، يمكن لسياق السورة في القرآن الكريم أن يحدد ترتيب المحتوى ومدى استخدامه في تلك السورة. على سبيل المثال، تبدأ سورة الشعراء بذكر مدى حزن النبي ﷺ على كفر أهل مكة

Copyright © 2023 JCMS

به، ولتقوية قلب النبي ﷺ تم الاستشهاد بسبعة أنبياء سابقين، مع ذكر تفاصيل حول كيفية تجاوب قومهم، والعقوبة التي تلقوها على كفرهم. من الملفت أن قصة سيدنا موسى عليه السلام ذُكرت أولًا ضمن ٥٨ آية، وذكرت أنه كان يخشى أن يلقبه قومه بالكذاب، فخاطب المولى عز وجل بأنه يخاف أن يضيق صدره أو لا ينطلق لسانه، وطلب منه أن يرسل معه أخاه هارون ليشد به عضده. في المقابل، تم ذكر خمسة أنبياء في سورة القمر وكان آخرهم موسى عليه السلام والذي لم يذكر حتى بالاسم بل ذُكر فقط باختصار في آيتين، وركزت القصة على كفر قوم فرعون بكل الآيات والوعيد، "فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر". ركزت سورة القمر باختصار على النُذر التي أُرسلت للناس، وكيف رفضوها، ومدى شدة العقاب الذي حل بهم. فلا يسمح السياق هنا بأن ترِد قصة سيدنا موسى عليه السلام بشكل مُطوَّل.

هذا المبدأ الذي يوضح سبب ذكر شيء ما في نقطة معينة ينطبق أيضًا على سورة البقرة، قال تعالى ﴿حَافِظُوْا عَلَى الصَّلَوٰتِ وَالصَّلٰوةِ الْوُسْطٰى وَقُوْمُوْا لِلّٰهِ قٰنِتِيْنَ﴾ (البقرة، ٢٣٨-٢٣٩). هذه العبارة وردت في منتصف موضوع الطلاق، والذي يتناول مرحلة قد يدخل فيها الطرفان المطلقان في عداء حاد، فطُلب منهم أداء الصلاة ثم العودة إلى المناقشة، أملاً أن يحسن هذا من مزاجهم. يحدث هذا كذلك في الآية السادسة من سورة المائدة حين أمر الله تعالى المؤمنين بالابتعاد عن الطعام غير الصحي والعلاقات الجنسية غير المشروعة، وأمرهم مرة أخرى بأداء الصلاة، والتطهر لذلك فهي من أفضل بركات الله. في سياق مماثل حول أهمية ترتيب المسائل، نرى ذلك في سورة الكهف، الآية ٢، حيث ذَكرت بأن القرآن الكريم قد أُنزل على النبي ﷺ ﴿لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيْدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ (الكهف، ٢)، بينما في سورة فصلت قال تعالى ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (فصلت، ٤)، فالترتيب كان عكسيا بسبب السياق.

إن زيادة الوعي بأهمية السياق ضرورية، لأنه يؤطر آيات معينة ويصحح أي تصورات بشأن فوضوية بناء السور، أو أن القرآن يصدر أقاويل غير منطقية أو أخطاء تاريخية، وأن القافية القرآنية هي فقط للتحسين، وأن السور المكية تعتبر تقليدا لسجع الكُهّان. كذلك، يحمل السياق دلالات لاهوتية تتعلق بالقراءات التي تدعي أن تعاليم القرآن الكريم تُعادي غير المسلمين وتخالف التفكير العلمي الحديث وأساليب الحياة. فكما وضحت هذه المقالة، يقوم المترجمون عادة بالقيام بأخطاء في نقلهم للنص القرآني مُتبعين منهجًا متفرقًا و/أو حرفيًا، والتعامل مع المفردات والآيات كما لو كانت منعزلة، غالبًا إما بسبب اتباع المترجمين السابقين دون انتقاد، أو عدم الانتباه إلى خاصية الوجوه. وعليه فمن الضروري لجميع

Copyright © 2023 JCMS

المشاركين في تفسير القرآن وترجمته أن يحافظوا بحزم على السياق في أذهانهم، سواء كان ذلك سياق الخطاب أو سياق الموقف.

Copyright © 2023 JCMS

References

Abdel Haleem, M.A.S., (2010). *The Qur'an, English Translation with Parallel Arabic Text*. Oxford: Oxford University Press.

Abdel Haleem, M.A.S., (2013). 'Divine Oaths in the Qur'an', *Journal of Qur'anic Studies*.

Abū Ḥayyān, A. (1993) *Al-Baḥr al-muḥīṭ*. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Al-Bayḍāwī, A A. (1988). *Tafsīr al-Baydawī*. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Cook, M. (2000) *The Koran: A Very Short Introduction*. Oxford: New York; OUP.

Hassan, T. (1973). *Al-Lugha al-ʿArabiyya, maʿnāhā wa-mabnāhā*. Cairo: Dār al-Thaqāfa.

Hassan, T. (1993). *Al-Bayān fī-rawāʾiʿ al-Qurʾān*. Cairo: ʿĀlam al-Kutub.

Hassan, T. (2004). Al-Sabc al-mathānī (Q. 15: 87). *Journal of Qur'anic Studies*, 6(2), 184-188.

Ibn al-Athīr, Ḍ A. (1939). *Al-Mathal al-sāʾir fī ʿadab al-kātib wa'l-shāʿir*. Cairo: Muṣṭafā al-Bābī al-Ḥalabī.

Ibn Salāma, H A. (1986). *Al-Nāsikh wa'l-mansūkh*. Beirut: al-Yamāma.

Ibrahim, A. (1972). *Al-Muʿjam al-wasīṭ* . 2 vols. Cairo: Academy of the Arabic Language.

Pope Benedict's XVI 'Faith, Reason, and the University: Memories and Reflections', p. 2. Available at http://w2.vatican.va/content/benedictvi/en/speeches/2006/september/documents/hf_ben-xvi_spe_20060912_university-regensburg.html (accessed 5 April 2016).

Al-Qazwīnī, M b. ʿA A. (1970). *Sharḥ al-Talkhīṣ*. Damascus: Dār al-Ḥikmaal.

Al-Rāzī, F D. (1980). *Al-Tafsīr al-kabīr*. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Ṣāliḥ, M A. (1993). *Tafsīr al-nuṣūṣ fī'l-fiqh al-Islāmī*. Beirut: al-Maktab al-Islamī.

Watt, W. M. Richard L. B. (1970). *Introduction to the Qur'an* (Edinburgh: Edinburgh University Press.

Copyright © 2023 JCMS